واقعة الطف

حقائق ومعطيات نفسية ـ اجتماعية

علي كاظم عجة الشمري

مدرس مساعد / كلية التربية /

جامعة واسط

المقدمة

تُعَدّ واقِعَة الطف الحدث الأكثر أهمية لَيسَ في تاريخنا العربي والإسلامي حَسب، بل وعلى مستوى التاريخ الإنساني كَكُلّ، ذلكَ بما تبنت ودافعت عن قيم ومباديء هي محط إحترام الإنسانية بمختلف أطيافها العرقية والعقائدية في كل زمان ومكان .

والأدلة على ذلك كثيرة تجلت بتصريحات ومواقف العديد من مفكري وقادة الامم في العالم، ومثل ذلك قول المهاماتا (غاندي) الشهير،حينما سُئِل... من أين لك تلك القوة لتقهر بريطانيا العظمى؟ فأجاب (تَعَلَمتُ مِنَ الحسين أن أكونَ مَظلوماً فَأنتَصِر) (هيكل ،١٩٨٦، ص٣٠) .

ذلك إنَّ غاندي لم يلتزم مباديء الحسين قولاً فقط،بل ترجمها إلى سلوك عملي واقعي في ميدان نضاله ضد المستعمر، لِقناعته بانه السبيل الأكيد لِنيل الحرية. وهذا شاهد حي على تجاوز ملحمة الطَفّ حدود محيطها الجغرافي والعقائدي المحلي الى المحيط العالمي الإنساني (الشبلي ،١٩٧٨، ص٦٢) .

وشاهدٌ آخر نقرؤه على صفحات كتاب تاريخ الحضارات لمؤلفه المستشرق الفرنسي (جون لون) إذّ يقول ..(تعودنا أن نشهد في كُل حضارة رجلاً مؤثراً،يصبح رمزاً تتناقلهُ أجيالها عِبر القرون ، وأجد مثل ذلك في حضارة العرب عند الاسلام في الحسين مضحياً لم يشهد التاريخ مثله) (هيكل،١٩٨٦، ص٣١) .

والدراسة الحالية تعد خطوة أولى في ميدان البحث بمشكلة الطف ، لذا تعذرت الإحاطة بكل جوانب الواقعة، بسبب ضيق الوقت قياساً بالحاجة إليه،قلة المصادر،صعوبة الإتصال بالمختصين في داخل وخارج البلد ،لكن في الوقت نفسه تَعد بدراسة مستقبلية أكثر سعة، تتناول ماتبقى من الجوانب والمواقف التي تضمنتها الواقعة .

وتجدرالاشارة إلى إنَّ البحث إستند إلى المنهج التأريخي كونه يلائم الموضوع ، كما لم يعتمد البحث على دراسة سابقة ، والسبب ببساطة يعود لعدم وجود دراسة واحدة حول تلك القضية ضمن الأدب النفسي الاجتماعي عراقياً وعربياً على حد علم الباحث. ومايجدر بالإشارة أيضا الى إنَّ البحث لايمثل وجهة نظر الباحث الشخصية، بقدر ماهو توظيف لوجهات النظرالعلمية النفسية والاجتماعية في تحليل المواقف المتضمنة، التي هي بإعتقاد الباحث وراء الكثير من التساؤل حتى يومنا هذا، من دون أن نسعى او نألو جهداً للنقاش والمعالجة.

مشكلة البحث وأهميته

تعد القضية الحسينية مشكلة بكل مافي الكلمة من معنى ، فهي بالأساس حدث أدى إلى معركة ، والمسألة الجوهر في الإشكالية التي قد يتجنب البعض التعرض لها لما قد تثير من حساسية في نفوس المسلمين، مخافة أن تحسب القضية لفئة معينة من المسلمين دون الأخرى وتباعاً قد تُفهَم الفئات الأخرى بشكل أو آخر في الجانب الضد غير المساند للقضية . ولو تفحصنا الأمر لوجدنا أن تكريس هذا الهاجس يعود إلى الأنظمة التي تعاقبت على حكم المجتمع الإسلامي خدمة لنظريتهم في السلطة والهيمنة موجدة شعوراً لدى الفئات الأخرى والتي ماهي إلا وجهات نظر إجتهادية في الإسلام ولم تكن في منهجها وذاتها مضادة لمنهج الحسين البتة، كما أراد تصويرها من قاموا بها والأنظمة التي أعقبتهم . والدليل إن فئات المسلمين مارأت في قتل الحسين سلوكاً سوياً ولامرتكبيه إلا حفنة من المنحرفين، ولو كان غير ذلك أيّ إنَّ لدى طائفة معينة من المسلمين رأي مغاير فمعناه أن ننفي أو نطعن في عشرات بل مئات الأحاديث والروايات الموثوقة لكبارعلماء تلكَّ الطوائف في الإشادة بالحسين وبطلان مناوئيه (الوردي ،١٩٨٤، ص٥١) .

ولكن قد نجد إلى الآن من يروج لهذا الفهم المشوه من شتى الأطراف لمقاصد يعرفها المتيقظين هي إشاعة الفتنة والفرقة بين أبناء الدين الواحد خدمة لمصالح سياسية وعنصرية، مستغلين جهل الجمهور وغضاضة وجدانه وتلك هي مشكلة يعانيها مجتمعنا اليوم ، بل هي أساس في مشكلات عدة وواحدة من كبرى التحديات التي يواجهها مجتمعنا ويدفع ثمنها من إستقرار أبنائه وأمنهم النفسي والإجتماعي ، ومن أشد الفايروسات وأخطرها فتكاً بالشعب المسلم الواحد وتهديداً لوجوده وكيانه. كما يرى الباحث من جانب آخرمظهراً ميدانياً للمشكلة هو مايسود الآن من ممارسة للشعائر الخاصة بالمناسبة وخروجها عن الإطار المعهود عنها نوعاً وكماً ، ذلك إنها أصبحت تمارس على مدار السنة مما قد يسهم في ضعف ألقها والشوق المعهود لها عندما يحين موعدها .

كما يلحظ ممارسة تلك الشعائر وترديد الشعارات الخاصة بها في مناسبات وأحداث لاعلاقة لها بها ماقد تثير تساؤل البعض عن القصد من إستحضار الشعائر الحسينية في ذاك الموقف ولمن هي موجهة، بما يفقد تلك الشعائر هيبتها وهدفها، عندما تستغل لأغراض أخرى لاعلاقة لها بها . فتؤدي إلى حرف القضية عن مسارها في تعبئة المسلمين لمحاربة الظلم وإحقاق الحق لتحولها إلى أداة لشق الصف خدمةً للعدو.

لذلك يمكن أن تُحَدّدّ المشكلة للإجابة عن التساؤل الآتي :

ماهي الرؤى النفسية والإجتماعية المتضمنة في واقعة الطف التي يمكن أن تكشف لنا عن عوامل لم نكن نعرفها، تسهم عند معرفتنا بها في تصحيح بعض التصورات والمفاهيم لدى فئة منا. وكي نزيل كل السلبيات المرافقة لشعائر هذه الواقعة لتظهر بشكلها الحقيقي الأصيل للفئة الأخرى.

أهداف البحث

يهدف البحث إلى مايأتي :

١.التعرف على الدلالات النفسية للمواقف التي حدثت قبل وإثناء واقعة الطف .

٢. التعرف على الدلالات الإجتماعية للمواقف التي حدثت قبل وإثناء واقعة الطف .

٣. إستنباط الدروس والعبر من تلك المواقف في معالجة واقع النظرة للواقعة من فئات المجتمع الإسلامي المتعددة .

التحليل

إقتضى التحليل تناول الواقعة في مرحلتين وكالآتي:

* المحور الاول : مرحلة ماقبل المعركة

وهي المرحلة السابقة للمعركة، حيث جرت فيها الأمور والأحداث ذات الصلة المباشرة بقرارالمعركة اللاحق،فضلاً عن إنَّ هذه المرحلة تضمنت اجراءات الإعداد والتعبئة البشرية والمادية، وماتصل بذلك من مواقف ذات دلالات نفسية واجتماعية.

وتتضمن مايأتي:

١. الحسين في المدينةالمنورة بين رسائل النجدة ومسؤولية إتخاذ القرار

بعدَ أن تجاوزت سلوكيات وممارسات الأمويين الحدود، وأفرغ الإسلام من محتواه الاساسي ولم يبقَ منه إلا الإسم فقط، أصبحت الأمة تضيق ذرعاً بهذا الحال المتردي،وكانت مشاعرالامتعاض والضجر تلك تعم جميع أمصار الدولة العربية الإسلامية آنذاك(البصري،١٩٨٩،ص١٩٣). وعلى رأسها الكوفة كونها تأخذ أهمية خاصة باعتبارهاعاصمة الدولة أثناء خلافة علي، وكانت مسرحاً للتحديات والصراعات بين علي ومعاوية، لذا بقي المجتمع الكوفي يتصدرالساحة العربية والاسلامية في تعاطيه مع القضايا التي كانت تبرزعلى ساحته. وهاهي الكوفة ترسل أكثرمن (١٢) ألف إمضاء في رسائل تستحث فيها الحسين على الثورة. وبإثر ذلك قام الحسين باجراء سلسلة من المشاورات،انتهى الامر فيها بالقرارعلى ضرورة النهضة. عندها أوعز بإرسال سفيرعنه الى الكوفة يستطلع له الأمر، ويقف على حقيقة الأوضاع تمهيداً لقدومه، وكان المرشح لتلك المهمة ابن عمه مسلم بن عقيل

(حسين،١٩٦٨، ص٦١) (الصدر،٢٠٠٣، ص٢٥٨) .

وحول ماتقدم ... يستدل الباحث على مؤشرات عدة منها : إعطاء الحسين عناصر الحياة حقها من الأهمية والاعتبار، ولم يركن الى توقعه النابع من دينامية نفسية وأدلة حسية على النهاية، وإنَّ الامر سينتهي بقتله ومن معه في ذلك المكان باجماع الرواة

(الخوارزمي،١٩٩٧،ص٢٣٢) .

مايدعو للتساؤل أيضاً .. لماذا الاهتمام باجرءات الاعداد والتعبئة! وكان على الحسين وهو مدرك لمصيره أن ينهض على الفور ويدعو المسلمين معه للجهاد وينتهي الامر، ويتجنب إرسال مسلم للكوفة، ويوفر على نفسه الجهد والوقت الذي إستُنفِذ بسلسلة المشاورات التي قام بها في المدينة . وكإجابة على ذلك باعتقاد الباحث، إنه وفي الوقت نفسه الذي قد تصدق فيه قناعة الحسين الى ماسيؤول اليه مصيره إستناداً إلى ماسبق من إشارات، فإنه كإنسان لايمكن أن يفصل نفسه عن عناصر الحياة ومتغيراتها المادية، وكي يقوم بمسؤليته تجاه المجتمع الذي يحتاج أنّ يشاركه الحسين رأيه ويعرض له مبررات ودوافع النهضة . بالإضافة إلى الإعداد المادي والبشري اللازم لذلك، مع الأخذ بالإعتبار مستوى الإيمان وهوالعنصرالذي طالما شدد الحسين عليه، وهو في ذات الوقت ماأدى أن لايبقى معه الا القلة القليلة التي وصل بها الى كربلاء . وإنفراج الكثيرين عنه في الطريق بعد قناعتهم بأنه لاأمل في الحصول على مكاسب قد يأملها البعض من وراء الحروب

(الحلي،١٩٦٧، ص٢٣١) .

وخلاصة الأمر نريد القول بإنهُ على الرغم من ان الدافع المعنوي كان هو العامل الاكبر،إلا إنَّ ذلك لم يمنع الحسين من القيام باجراءات التعبئة المادية الجماهيرية وبالقدرالذي يخدم العنصر المعنوي (جواد،١٩٦٨،ص٤) .

ذلك إنَّ العامل المعنوي هوالأساس لأيّ معركة يراد النصر فيها مادياً أو مبادئياً (الزبيدي،١٩٨٨، ص٤١) .

كما إنَّ إرسال الحسين سفيراً عنه يستطلع له الأمر في الكوفة إنما يحمل دلالة واضحة على التزام أهم ركنين في منهجية البحث هما:

اسلوب الملاحظة الميدانية ، والمسح الميداني للراي العام . مما يؤشر سمة العلمية والاستناد الى التحري الميداني الدقيق لاالارتجال والاندفاع باتخاد القرار، خصوصا تجاه أمر مثل الذي الحسين بصدده.

المسألة الأخرى إنهُ لم يعر أهمية للعدد رغم إنهُ ركناً أساس في خوض الحروب، وهو مايعضد نظرية النوع التي كان يؤمن بها الحسين ولانستطيع هنا القول إنَّ الحسين لم يتعامل مع الأمر بجدية أو إن تقديراته ماكانت واقعية أوغير ذلك من الإحتمالات. بل إنه كان في غاية التحضير والإستعداد العسكري بكل جوانبه،ولكن يمكن القول إن تعبئته كانت تقوم وتركز على الجانب النفسي المعنوي أكثر من الجانب الكمي. ماقد يتساءل معه بنفس الوقت الكثيرون حول اللاتناسب بين ماقام به الحسين من إجراءات وبين النفر القليل الذي معه لقائد يخرج لمعركة يقابل فيها ألوفاً،وهو مالايعد تناقضاً بقدر مانستدل به على النظرة الموضوعية للنهضة بما وقع على عاتقها من مهمة نوعية في إيقاظ الأمة،وهوماكان يؤمن بهِ الحسين وماراهن عليه بإعتقاد معظم المحللين .

٢. الحسين مع الإنطلاقة الأولى

بعد أن أكمل الحسين مهمته في إعداد الركب الذي انطلق بعدد بسيط من المدينة إلى مكة، ليتكامل من هناك ويبلغ الالاف، ثمَّ لينتهي في كربلاء بالمجموعة التي تبقت وهم نحو(٧٠) فرداً ونيف، ذلك إنهُ شدّد منذ البداية بأن لايفرض الالتحاق به فرضاً على جمهور المسلمين، وأن لايكون معه من هو مكره على الخروج غير راغب فيه
(الخوارزمي،١٩٩٧، ص٣) .

ونتسائل هنا ...

لماذا قام الحسين بذلك ولم يفرض الجهاد على الأمة،على الرغم من إنَّ كربلاء لم تكن معركة شخصية بين الحسين وخصومه بقدرماكانت معركة الأمة كلها والحسين كان فيها المتصدي؟، ويعتقد الباحث إنَّ الحسين بسلوكه هنا،إنما أرادها محكاً حراً للمسلمين، ذلك إن الذي يقف بالجانب الآخر يسمى مسلماً ولو بالعنوان، ومعنى أن يفرض الحسين الجهاد فإن ذلك في الواقع سيفرز فئتين، وهو لم يكن يرى المسلمين إلا فئة واحدة حتى أولئك الذين يقفون في الجانب الضد، كان يلتمس لهم العذر في ذاته ويعي الفروق الفردية في الإيمان وقدرة النفس في تحمل الإغراءات والضغوط ويحتاجون لبعض النصح كي يستعيدو رشدهم. ودليل ذلك الانقلاب الذي أحدثه خطاب الحسين في صبيحة المعركة بمعسكر ابن سعد، فهو يعتبر نفسه إماماً لكل المسلمين وإنهم جميعاً مسؤولون منه وقوله يعكس ذلك بوضوح (ويحكم مالكم اقتدحتم علينا ناراً،اقتدحناها نحن وأنتم على عدونا وعدوكم) ، وهذا هو حقيقة منظار الحسين. يضاف لذلك إنه لم تكن لديه نية العدوان وكان حريصاً على أن لايراق دم مسلم.

ومن جهةٍ أخرى كان من القناعة بعدالة القضية بما لاتحتاج به الى الالزام في النصرة .

ثم انطلق بعد ذلك جاعلاً خط مروره بمكة، في تلك الأثناء بَلَغَ الحسين من أحد المارة خبر مقتل مسلم . كان لذلك الخبر وقع بالغ الألم عليه، سيما وإنهُ الخبر الأول الذي تعرض له الحسين وبداية المأساة في الفصل الحسيني الدامي، وما كان لهُ إلا أن أسرعَ باخبار عائلته وصبيته، ومكثَ عندهم يشاركهم مشاعر

الصدمة. وفي ذلك انما يقدم الحسين مثلاً واضحاً على المواساة الاجتماعية ومالها من أثر في تخفيف مشاعر الصدمة، وكان هذا حاله مع الجميع فيما بعد.

بعد خبر مقتل مسلم قررَّ الحسين الاندفاع بحماسة وإصرارأكثر

وهنا وقفة نتسائل فيها ....

على وفق الافتراض الأول حول إرسال مسلم من قبل الحسين بهدف تقصي الحقائق والوقوف على رأي الجمهور، لكي يحدد وفقه قراره اللاحق بالخروج، فإنَّ المفترض لماعلم بأمرالانتكاسة في قتل مسلم وانقلاب الجمهور أن يرجع عن قراره ويعود. هذا إن استبعدنا قناعته بضرورة الثورة ولو بنفسه فقط،إذن وعلى هذا الأساس فإنَّ السلوك المنطقي له هنا أن يكون لمقتل مسلم أثر في الاندفاع أكثر بالثورة بدلاً من التسليم والتراجع ، وهومافعله الحسين .

أما بالنسبة الى ميله للمرور بمكة، فانَّ له مبررات عدة منها : إن مكة تعد البلدة ذات الثقل الاكبر في بلاد العرب عامة والمسلمين بصفة خاصة، لذا فهي تحمل أكثر من دلالة للحسين ومن معه وللقضية باكملها ، فهي معقل الاسلام ومنطلق الرسالة، لذا أراد أن يعيد فيها عهداً متجدداً لحركةالحرية والاصلاح التي بدأها جده (مطهري،١٩٩٢ ،ص ٢٣) .

٣. من مكة استعادة المسير وبوادر الانتكاسة في الطريق

بعد قيام الحسين باجراءات التعبئة وحشد النصرة في مكة على غرار ما حصل في المدينة، كانت النتيجة أن يلتحق به جيش قوامه الالاف. وفي كل محطة كان الحسين يؤكد مجدداً على الجمهوراللاحق به بأنهم غير مجبرين على اللحاق به ، وإنهم أحراربأن يتركوه وقدره او يتبعوه عن قناعة تامة .

ويعتقد الباحث أنها كانت ذات الاسباب والدوافع التي استعرضت آنفاً، وكانت النتيجة ان بدأ الأفراد بالتسرب عنه في الطريق شيئاً فشيئاً لينتهي الامر ببقاء المجموعة القليلة التي وصلت وقاتلت في كربلاء .

وهذا دليل دامغ يعضد حقيقة تبني الحسين لنظرية النوع وبأن النفس هي المفصل والمعيار الأساس بما تحمل من خصائص فريدة، وليس هناك معنى في الكثرة وان كانت تحسم المعركة ميدانياً لصالحها.إذن كان الحسين يصبو ويتطلع الى نصرأكثر ديمومة، وليس النصرالمتعارف عليه مادياً في الحروب بالقضاء على الخصم(الصدر،١٩٧٥، ص١٣) .

عندما شارف الركب دخول ارض العراق استقبلته طلائع العدو بمجموعات يرأسها كل من(الشمربن ذي الجوشن والحربن يزيد الرياحي)، وكانت المهمة الأساس هي إعتراض ركب الحسين في الطريق وحرف خط سيره عن الكوفة والاتجاه به نحو كربلاء ، وذلك بحسب إشارة الاشعث بن القيس،بأنَّ الحسين لازال يشكل مكانة كبيرة في نفوس المسلمين عموماً والجمهورالكوفي بوجه خاص،وان دخوله الكوفة ورؤية الكوفيين تؤجج فيهم روح الثورة المستعرة،وينقلب الوضع بالكامل للدرجة التي قد يصعب السيطرة عليه. وإشارة الاشعث تلك كانت حقيقة واقعة، بالإضافة إلى بث روح الذعر في نفس الحسين ومن معه وتثبيط عزمهم . كما انهم مخيرون بمحاربة الحسين والاجهازعليه في الطريق ان كانوا باستطاعة من ذلك .

حالما التقت تلك المجموعات ركب الحسين بدأت بمزاولة سلوكياتها الإستفزازية،أشارالحسين على اصحابه بضبط النفس،وذخرالعزم، ومع إنها لم تنجح في إثارتهم للقتال، سوى إنها حققت فقط الغاية في تغيير خط سير الحسين باتجاه كربلاء والنزول فيها. وهنا وقفة ندعو فيها للتساؤل : لماذا لم يقاتل كل من قادة المجموعات (الشمر والحر) الحسين في الطريق مع انهم كانوا مخيرين بقتاله والاجهاز عليه ان كانوا باستطاعة من ذلك .

ويعتقد الباحث هنا ان كلاً مِن الشمر والحر كانوا متفقين على الغاية في تجنب مقاتلة الحسين وانهائه في الطريق حتى لو كانوا قادرين من ذلك ، ولكن الدوافع النفسية لكل منهم لم تكن واحدة .

فمن ناحية الشمر، كان يرى في الحسين مناسبة لتحقيق مكاسب أكبر وأبعد مدى من مؤامرة الطريق تلك، فالحسين لدى الشمر فرصة لاستعراض القوة امام الجيش جنداً وقادة،وماينعكس تباعاً ان تضع القيادة الأموية الشمر في الإعتبار كقائد . إذن هو كان يسعى لتحقيق مطامح إعلامية ومناصبية كبيرة من قتل الحسين . وما يعزز رأي الباحث هذا تكرار أكثر من حادث خلاف بينه وبين عمر بن سعد قائد الجيش قبل وإثناء وحتى بعد انتهاء المعركة، مايدل بوضوح على وجود حالة الصراع على المناصب والمغانم وليس حباً بالحاكم أو القضية .

أما من ناحية الحر، فيرى الباحث إنَّ الخصائص التي تضمنتها شخصية الحر والقائمة على اصول المنازلة العادلة والرافضة للإيقاع والتنكيل بالخصم هي التي كانت وراء عدم ميله لمقاتلة الحسين في الطريق. وأن يترك الأمر لاحتمالات منها أن ليس بالضرورة أن ينتهي الأمر بقتال، وتكون هناك سبل للسلام . وما يعزز رأي الباحث بوجود تلك الخصائص لدى الحر، موقفه اللاحق بالإنضمام الى الحسين نتيجة مارآه من فداحة القتل وانعدام التكافؤ .

* المحور الثاني : مرحلة المعركة

وتتضمن مايأتي :

١. الحسين على ثرى الطف واجراءات التعبئة للقتال

أ- ليلة الاجتماع الاول

بعد ان وضع الحسين رحله في كربلاء،امر اصحابه بنصب الخيام، ثم قام بتوزيع الركب من الاهل والاصحاب عليها، جاعلا خيمته في وسط المعسكر،بعد ذلك بدأ بتفقد المكان المحيط بمعسكره. وكان قلقه الاكبر يتركز حول توفر الماء،على الرغم من وجود نهر الفرات بمسافة قريبة الى حد ما، ولكن خشيته ان يحول العدو بينه وبين ذلك المصدر. وهو ماحدث فعلا بعد ذلك،مما يدل على قراءة نفسية سلوكية صحيحة من قبل الحسين للعدو. كما دعا القوم الى اجتماع كان هوالاجتماع الاول على تراب الطف. في ذلك الاجتماع قام الحسين بتقسيم القوم على مجموعات، وعين رئيسا لكل مجموعة، ثم وزعهم على المواقع، فجعل حبيب بن مظاهر على الميمنة، وزهير بن القين على الميسرة، واخاه العباس على اللواء، و يكون هو في دائرة الوسط ومعه ابنه علي الاكبر . في نهاية ذلك الاجتماع طلب خلوة الى نفسه . ويعتقد الباحث انما طلب الحسين تلك الخلوة رغبة في التأمل والمراجعة فيما اتخذ من قرارات وماقام به من استحضارات .

وهو إسلوب يؤكده المنظورالسلوكي المعرفي في علم النفس، يقوم على إجراء مراجعة فكرية يتفحص من خلالها الفرد ماقام به من سلوك سابق (الايجابيات والسلبيات)، كي يحدد في ضوءه سلوكه اللاحق (Harell&Others,1991,P.3) (صالح ،١٩٨٨،ص٦١) .

ولم ينم الحسين في ليلته تلك حتى الصباح .

ب.صبيحة عاشوراء: كربلاء بين السلام وبين الاصرار على العدوان

فيّ ذلكَ الصبح وقف الحسين محدقاً نظره الى الجيش المقابل وقد تكامل على الثلاثة الآف في أقوى الروايات وعشرة الآف في أضعفها

(الخوارزمي،١٩٩٧، ص٣) . ، مستقرئاً عناوين القيادة فيه، ثم ادار نظره الى معسكره مدققا على ان كل فرد في مركزه الذي حدد له. بعد ذلك شرع بخطاب وجهه الى المعسكر المقابل مذكراً وناصحاً

ومستبيناً لهم الاسباب والاهداف التي يبتغيها من نهضته، وموضحاً لهم تبعات ماقد يقدمون عليه والذي هو في غير صالحهم . وبهذا إنما اراد الحسين ان يلقي عليهم الحجة ويستعرض لهم حقيقة الامور التي ضللها عليهم من ساقوهم الى حرب،هي بالأصل موجهه ضدهم لافي سبيلهم ومصداق ذلك قوله في الفقرة السابقة . فكان تأثير ذلك الخطاب واضحا على الأفراد في المعسكر المقابل،اذ بدأوا بهمس فيما بينهم وكأنهم عادوا يستبصرون في الأمر بعد غشاوة. ليحددوا سلوكهم على وفق هذا الإستبصار لقرار بالتمرد. الامرالذي حدث جرائه اقتتال في معسكرإبن سعد أودى بحياة العشرات من الجنود كما يؤكد الرواة. وكاد ان يتطور الى انقلاب كامل لولا اعطاء ابن سعد الاوامر لمعالجة المتمردين وضرب معسكر الحسين بالسهام، وكان ذلك فعل القتال الاول في كربلاء .

وهنا وقفة للتساؤل من ناحيتين :

الأولى : هي وقوف تلك الثلة المؤلفة من(٧٦) فرداً ويمثلون معسكر الحسين،اما ذلك السيل من الحشد المقدر بـ(٣ـ١٠) الآف فرد بما لم يحدثنا تاريخ المعارك به من فارق مهول،ومالايتناسب مع قوانين التعبئة الميدانية في المصادر النفسية العسكرية، ثم مايؤلفه ذلك الحشد على تلك المجموعة القليلة من أثر نفسي يصل الى درجة لايمكن تحملها، وليس للفرد الا ان يتقهقر وينهار.

وهو ما لم يلحظ في معسكرالحسين بتأكيد الرواة .

هذا الصمود النفسي البدني قد لايتوافق مع ماتعرضه المصادرالنفسية من قوانين للتحمل الفيزيائي للضغط على الجهاز النفسي البشري . يضاف الى ذلك عامل العمرلبعضهم الذي كان بعمر يناهز الستون وأكثر وهو مالايتلائم أيضاً مع تلك القدرة في الفعل القتالي وتحمل أهوال الميدان .

ومايجدر بالذكر ان هذه الطاقة تنبه لها الحسين وحرص على استثمارها في الميدان،

وهي مايصطلح عليها اليوم بـ(المعنويات) في علم النفس العسكري، وتعد من الاكتشافات التي يفخربها علماء النفس في العصر الحديث

(الزبيدي،١٩٨٨، ص٤٠)،

إذ نَجد صورة عملية واضحة لها في جانب الحسين واصحابه قبل (١٤٠٠) سنة .

والثانية : هي وقع الخطاب الموجه من قبل الحسين على افراد جيش الخصم الذي يزودنا بدلالتين الاولى : تعضيد لرأي الباحث في صدرالبحث حول مشاعر الامتعاض من قبل الجمهور تجاه الامويين، ومالاجراءات التي يقوم بها قادة النظام في الكوفة إلا إدراك لمشاعر الجمهورتلك،كما إن ماتقوم به الحاشية من إجراءات ترسيخ لسلطة الأمويين إقتضتها المصالح وليس حباً بهم. والدلالة الثانية : هي حول قدرة الحسين وأصحابه على امتصاص زخم التأثير النفسي والمعنوي للكثرة فهم لم ينجحوا في ذلك وحسب، بل ومقابلته بفعل اقوى أسهم في إبصارالجمهور بالحقائق ممأدى إلى التمرد المشار إليه آنفاً، وهو ماقد لايتفق مع القواعد المنصوص عليها في مجال الحرب النفسية الحديثة .

ج. من مواقف الفداء والتضحية اللامعهودة في عاشوراء

كان شوط القتال في صبيحة العاشر من محرم للطف قاسياً وصعباً،حيث انتهى بمصرع (٤٠) فرداً من أصحاب الحسين وفتيان اهل بيته وكان كل مصرع يحمل أكثر من معنى نفسي واجتماعي . ومن بين اهم واشد تلك المواقف ايلاما وقسوة على نفس الحسين هو مصرع ابنه علي الاكبر. كان علي الاكبرغلاما يؤكد الرواة انه كان في مقتبل عمره ويحددون ذلك بعمرمن(١٧ـ ١٩) سنة، وهو ماتعرضه المصادر النفسية بعمرالمراهقة (Adolescent). وتطرح تلك المصادر أيضاً بان هذه المرحلة تعد حرجة في النمو البدني، وكذلك النفسي. عادة مايغلب على سلوك الفرد وشخصيته طابع التذبذب في المزاج، ضعف الاتزان الانفعالي،التردد وصعوبة اتخاذ للقرار

(kandel,1978,p.23) (Gendreau&Gendereau,1973, P.71)
. (Brook&Others,1986, P.414)

عند استحضار سلوك علي الاكبر في الميدان نجد خروجاً واضحاً عن مامعروض آنفاً في المصادر العلمية . فقد كان من الثبات مايدل على قناعة عالية، ومن التحمل للضغوط مايعكس مستوى استقرار نفسي سلوكي متفرد .

رجع مرة من ساحة القتال الى ابيه يشكوا الظمأ،ويرجو منه اشباع واحدة من اهم حاجاته الاساسية للبقاء وهو الماء فما توفر له، ثم رجع على تلك الحال لينتهي منهكا ممزقا في ساحة القتال .

الحسين كان متابعاً لكل ذلك المشهد، رأى بأم عينه كيف قتل ولده بذلك المنظر البشع الذي لاتقوى نفسٌ على تحمله. ثم ذهب إليه وأطال المكوث عنده،حتى خرجت اليه اخته زينب .

ويقول الرواة هنا خرجت زينب لتحافظ على اخيها لانه ان بقي عند ولده تخاف عليه من الموت.

وهنا وقفة للتساؤل

لماذا تخشى زينب على أخيها من الموت، وهي تدرك إن الحال سينتهي بذلك بناء على ماتراه أمامها من أمور وأحداث. وباعتقاد الباحث إنما هاجس زينب هذا معتمد على تعامل هؤلاء النخبة مع مفردات الحياة ككل الناس، مع عامل الإيمان بالقضية المختزن في نفوسهم،الذي يصبح معه الموت أمراً مرحباً به .

ونتساءل أيضاً هل كان ذلك السلوك مؤشراً لمعرفة بان للانفعال اثراً على باقي الفعاليات الحيوية ومن اهمها القلب والدماغ الذي يمكن ان يشهد مايصطلح عليه في علم الطب الحديث بالجلطة جراء انفعال حاد (Gabbard,2000,P.59) .

مماقد يستدل على معرفة لأهل البيت بأمور كثيرة منها أثر المواقف الصدمية النفسيةعلى البدن .

و تشير الدراسات الى إنَّ نسبة (٤٠%) من حالات الإصابة باضطراب ما بعد الصدمة (PostTraumaStressDisorder) تحصل لآباء وأُمهات شهدوا وفاة أبنائهم اوأعزاء لهم بموقف حادث مريع (DSM-IV,1994,P.4) .

لكننا لم نلحظ أي من ذلك على سلوك وشخصية الحسين، بل على العكس عاد إلى مكانه بنفس ماكان عليه من الاستقراروالثبات قبل الحادث باجماع الرواة .

بعد مقتل علي الاكبر تقدم الآخرون من آل البيت وانتهوا على نفس الشاكلة، ومارافق ذلك من مظاهرألم صدمي نفسي انفعالي .

د. الموقف الشجاع والقرار الجريء

إزاء تلك المشاهد المروعة للقتل والتنكيل كانت هناك ردود افعال وانعكاسات نفسية قوية على الافراد في معسكر العدو، فهناك من عبرَ عن امتعاضه صراحةً لتلك المبالغة في العدوان، وهناك من انتقد تلك الفضاضة في التعدي والتجاوز على الحرمات، وهناك من وقف متحيراً لايعرف مايقول ومايفعل (الشيرازي،٢٠٠١، ص٣٦٦) .

والبعض الاخر كان من الوعي بالموقف ، فقابله بمايستحق من سلوك، ومثل ذلك موقف الحر بن يزيد الرياحي فقد طبق نظرية انتصار الأنا الأعلى وأعطى شاهداً حياً عن الصراع بين إرادتي الخيروالشر، تلك الشخصية التي نتلَمَس عمقها من السطورالتي حملت وصفها .

الحُر كانَ يَنظُر مثل الآخرين إلى مسرح المعركة ، إلا انَهُ كانَ يختلف عنهم في شعوره الداخلي إزاء مايَحصُل ، وَكانَ يَستَجيبُ لها داخليا بألم ، ذلك إنَ مايراه خارج موازين المنازلة العادلة ، وبنفس الوقت كان يستوعب مايراه من مشاهد للتضحية والايثار كونها تنسجم مع خصاله وقيم ذاته .

وكانت مظاهر ذلك الصراع قد بانَت عَلَيه ، فَسَأَلَهُ ٱلَذي بجانبه، مالك ياحُرأراك تَرتَجِف، والله لوسئلت من أُشجع الكوفة لما عدوتك (أي لما قلت غيرك)، فأجابهُ إني أخير نفسي بين أمرين، وفي النهاية اختارَ الأمر الموافق لخصائص ذاته . فاندفع نحو معسكرالحسين ليعلن انضمامه اليه، وقاتل حتى انتهى صريعاً وشكل حدثاً تأريخيا مميزاً ومنعطفاً في الواقعة كانت له انعكاساته على مجريات الاحداث اثنائها

وبعدها، وقد سجل موقف الحر هذا محطة خاصة لايمكن التغاضي عنها ، ولايسع أي مهتم بتلك المسألة إلا الوقوف عندها وتأملها والاستبصار فيها واستخلاص المعاني والدلالات على سمات عدة من بينها الثقة بالذات، الجرأة في اتخاذ القرار والاندفاع البطولي، حتى ليكاد الحر بموقفه يشكل مدرسة لوحده في الاطار النظري النفسي الاجتماعي الكربلائي .

هـ. اللحظات الاخيرة ومواقف أكثر صدمية

في نهاية اكثر من مأساوية، وعندما لم يبق مع الحسين أحدٌ من اهله إلا أخاه العباس،نظرَالعباس الى الساحة وجدها خالية سوى القتلى. فطلبَ إلى الحسين يأذنه بالقتال ، فأشارَ اليه بمهمة أخرى هي جلب الماء للنساء والعيال ، فأجابه لذلك ، وعند الماء هَمَّ العباس بشرب الماء، والمعروف للجميع إنَّ الكائن الحي لايمكن له إرجاء إشباع حاجاته الأساسية مهما أراد واولاها الماء والطعام ، ذلك إنها حاجات بايولوجية مُلِحّة لازمة للبقاء ، ولكن نجد هنا أمراً محيراً في تحمل ضغط الحاجة، ونكران الذات،والاحساس بالآخر. فالعباس رغم ماهو فيه من نقص حاد وحاجة للماء أبى أنْ يسد حاجته لان هناك صورة ذهنية لعطاشى ينتظرونه وعلى رأسهم الحسين.إنَّ ذلك السلوك يعطي دلالة واضحة على الروابط والقيم الوجدانية النادرة لتلك النماذج الشخصية .

عاد العباس بأمل إيصال قربة الماء الى من يَنتَظِرُها بِشغف. إلا إنَّ العدو حال دون وصول هذا الماء إلى من كان ينتظره، إذّ اعترضوا عليه الطريق واردوه صريعاً . ذهب إليه الحسين وجده يعالج انفاسه الاخيرة ،أراد نقله الى المخيم، لكنه طلب أن يتركه في مكانه والحسين ينظر ويعيش واحداً من أقوى الضغوط الصدمية الصعب على قلب وعقل إنسان احتمالها .

بعد ذلك المطاف لم يعد للحسين احد فعزم على ملاقاة الحشود بنفسه، فدعا بثياب لايرغب فيها احد يضعها تحت ثيابه كي لايسلبها،أتته اخته زينب بثوب من الخام الرخص، فردَه طالبا إبداله، فأتته بثوب من الخز(أيّ الحرير)، ففزره أي مزقه ووضع تحت ثيابه.

وهنا وقفة تستدعي التساؤل ....

إنَّ الحسين وهو في تلك الحال يطلب شيء ويؤتى به ويتفحصه ويرفضه ليأتوه بشيء اخر، معنى ذلك إنهُ في حالة تكامل وعي من دون أي تشوش رغم كل الجراحات ورغم كل الصدمات التي تعرضَ لَها، وذلك يتعارض مع مامنصوص عليه في المصادرالعلمية النفسية بأن يكون مشوشاً ومختلاً جراء ماتعرض له من مواقف صدمة حادة، بَل على العكس كانَ في غاية الوثوب والاستقرار النفسي والانفعالي يقاتل بضراوة وصمود لآخر لحظة حتى مصرعه .

خاتمة

إنتهى ذلكَّ المشهد بِمَقتَل الحسين على يد الشِمّر بن ذي الجوشن، ولكنهُ لم ينتهِ من ضمير التأريخ كعنوان للإباء بما قدمَ وضحى، وَأعطاهُ ذلك الموقف فرصة لِحياةٍ أكبر وَخُلُدَ ومن معهُ رَموزاً للنضال من أجل الحرية، وَخَلُدَ أيضاً قاتليهم مثلاً للشر والنفس المريضة بالعدوان .

الاستنتاجات

: يستنتج في ضوء ماتقدم من تحليل للواقعة مايلي :

١. إنَّ معركة الطف لم تكن وليدة ماجرى من أحداث وظروف في عهد الحسين وحسب، بل كانت نتيجة أسباب سابقة مهدت لحصولها بعضها يعود إلى عهد النبي .
٢. إنَّ إرسال الحسين سفيراً يستطلع الأمر ويقف على رأي الجمهور،إنما يدل على شخصية ذات دافع تأملي أكثر منهُ إندفاعي في التعامل مع الأحداث .
٣. إنَّ الإجراءات التعبوية التي قام بها الحسين ، تؤكد إعطاء أهمية للعناصر المادية في النهضة . مع إنَّ العامل النفسي المعنوي كان هو العامل الأكبر في المراهنة .
٤. إنَّ الحسين لم يضع الحرب كأمر واقع عند خروجه ، بل قدم خطاب النصح والسلام ، ولكن الخصم جعل الحرب واقعاً مفروضاً عليه ، ومع ذلك لم يهادن أويستسلم بل وقف وتصدى .
٥. إنَّ الحسين بإجرائه في دعوة الناس للثورة وليس إجباراً،إنما يحمل دلالة على إيمانه بوعي المسلمين وثباتهم على عقيدتهم، بمعنى إن الثورة كانت اختباراً للمسلمين ، واختيار النخبة منهم لتلك المهمة .
٦. إنَّ كربلاء كانت إختباراً صعباً لإيمان المسلمين، واستطاعت الفئة القليلة المقاتلة مع الحسين استحثاث روح الإسلام وإعادت له نشاطه الذي اضمحل بعد الخلافة الراشدية .
٧. لم يكن الجانب الوجداني هو الدافع إلى نصرة الحسين فقط، بل إن ماقَدمه الحسين من حجج وعوامل سببية منطقية دفعت بقوة إلى نصرته .
٨. عدم إعارة الحسين الانتباه إلى العدد مع إنهُ خارج لمعركة ، وقلما نجد ذلك عند أحدٍ آخر،هو دليل على قناعته بعظم مايحمل بداخله من قناعة، يصبح العدد إزاءها غير ذي جدوى .

التوصيات :

كما يوصي الباحث بعدة وصايا تركزت فيما يأتي : ـ

١. يتقدم الباحث إبتداء بالتوصية إلى مجلس محافظة واسط ،بتبني طبع وتوزيع نسخ من البحث على المرجعيات والمكاتب الدينية والمساجد والحسينيات للمحافظة ، وكذلك لعموم القطر ، كي نشهد الفائدة العلمية والعملية له .
٢. كما يتوجه الباحث بالتوصية إلى القائمين على المواكب ومجالس العزاء الحسيني ، بفتح دورات توعية للشباب بتلك الواقعة ،أسباب قيامها ،المعاني والدروس المستخلصة منها، الآثار والتبعات المترتبة عليها.
٣. كما يتقدم الباحث بالتوصية إلى المرجعيات الدينية للطوائف بأنواعها بمحاولة عقد ندوات وخلق أجواء يجري فيها النقاش حول قضية كربلاء ،فقد يكون في النقاش فرصة للمعرفة كانت غائبة ،وأيضاً الهدف الأكبر المتوخى من هكذا نقاش في التقارب بالرؤى حول تلك الواقعة ومنها إلى القضايا الأخرى .
٤. ويتوجه الباحث كذلك بالتوصية لكل القائمين على الأمر في الدولة سياسيين ومسؤولين وأساتذة جامعات وباحثين وعلماء دين لتنمية ثقافة خطابية واحدة نستعرض فيها كربلاء ونتفق على إنها نقطة تلاقي المسلمين وتلاحمهم كما أرادها الحسين أن تكون، وتعريفهم من هو عدوهم الحقيقي الذي يريد الإيقاع بينهم لتحقيق مصلحته الذاتية في السلطة والطغيان ، ولتكون كربلاء هي الخطاب الذي يجمعنا ،والمحور الذي نلتف حوله بمختلف مذاهبنا وألواننا وأعراقنا.

٥.كمايدعو الباحث زملائه من الاختصاصات ذات العلاقة بالواقعة وفي رأس ذلك العلوم النفسية والإجتماعية بضرورة تناول الواقعة بالبحث والدراسة.

المصادر:

١. البصري، ابو مصعب ، ١٩٩٩ ، الامويون وثورة الامام الحسين ، دار بن ابي الجمهور ، مؤسسة الفكر الاسلامي ، هولندا .
٢. الخوارزمي ، ابي المؤيد الموفق بن احمد المكي،١٩٩٧،مقتل الامام الحسين ،تحقيق الشيخ العلامه محمد السماوي،دارانوارالهدى، مصر .
٣. الزبيدي، د. كامل علوان ،١٩٨٨، علم النفس العسكري ، دار الحرية للطباعة والنشر، بغداد.
٤. الشبلي ،محمد رياض ،١٩٧٨، مع الحسين في نهضته، مطبعة بيروت،لبنان .
٥. الشيرازي ،آية الله العظمى السيد عبد المجيد ابن محمد رضا الحسيني ، ٢٠٠١، ذخيرة الدارين فيما يتعلق بمصائب الحسين واصحابه ، تحقيق الشيخ باقر درياب النجفي ، مركز الدراسات الاسلامية ايران .
٦. الصدر،آية الله العظمى السيد محمد باقر،١٩٧٥، من فيض كربلاء ، مطبعة الجوادين ، بغداد.
٧. الصدر ، آية الله العظمى السيد محمد محمد صادق، ٢٠٠٣، شذرات من فلسفة تاريخ الامام الحسين ، تقرير وتحقيق الشيخ اسعد الناصري،مطبعة انصار الله للطباعة والنشر والتوزيع .
٨. الطبري، محمد بن جرير (٣١٠هـ) ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ،١٩٦٠-١٩٦٨، دار المعارف، القاهرة ، مصر .
٩. العقاد ، مصطفى محمود،١٩٧٣، عبقرية الإمام علي(ع) ، دار العلمين للطباعة ، القاهرة ، مصر .
١٠. المطهري،آية الله العظمى مرتضى،١٩٩٢،الملحمة الحسينية،ج١، مطبعة اسماعيليان،ايران .
١١. المدني ، العلامة السيد محمد علي خان،١٩٧٤, انساب ابي طالب ، دار الغري للطباعة ، النجف .
١٢. الوردي ، د. علي ،١٩٨٤ ،الأسس الجذورية لمشكلات المجتمع العربي والإسلامي ، محاضرات غير منشورة .

١٣. جواد،مصطفى ،١٩٨٢، وقفة مع الأبرار ، كتيب ، مطبعة السراي ، بغداد .
١٤. حسين، د. طه ،١٩٦٨، الفتنة الكبرى (علي وبنوه) ، مطبعة الأزهر، القاهرة ، مصر .
١٥. صالح ، د. قاسم حسين ،١٩٨٨،الشخصية بين التنظير والقياس ، مطبعة جامعة بغداد ، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي .
١٦.هيكل ، د. محمد حسنين،١٩٨٦، رجال ومواقف ، مقال منشور في مجلة العربي ، الكويت .

References

1. American Psychiatric Association (1994) . Diagnostic and Statistical Manual of Mental Disorders (**DSM-IV)** (4th.ed) , Washington , DC : H : 5-26 . 155.

2. Brook , J. S. ; Whiteman , M. ; Gordon , A. & Cohen , P.(1986) .Dynamics of childhood and adolescent personality traits and adolescent drug use Developmental Psychology .Vol.22 , No. 3 , American Psychiatric Association , Inc. 403-414 .

3. Gendreau , P. & Gendereau, L. P. (1973). A theoretical note on personality characteristics of Heroin addicts , Journal of Abnormal Psychology , Vol. 82 , No. 1 , P. 139-140 . 121. 71.

4. Harell , H. ; Honaker , L. M. & Davis , E. (1991).Cognitive and behavioral dimensions of dysfunction. Journal of Substance Abuse, 3 , 415-426 .

5. Kandel , D. B. (1978) . Longitudinal Research on drug use : Empirical findings and methodological issues , John Wiley & sons , New York , PP. (18 - 23 , 53-63 , 75)